في الساعات الأولى من نهار (عيد الحب) ببغداد، كان كل شيء على حاله. (عمال المسطر) في قلب بغداد (الباب الشرقي) يقفون كعادتهم فرادى وجماعات الى جانب أدوات عملهم، يحدقون في وجه أي (أفندي) عابر ويقرؤون ملامح وجهه، عسى أن يشير الى أحدهم فيحمر وجهه ويبتهج لتلك الإشارة الدالة على فرصة عمل استيقظ منذ الفجر وتوكل على الله لاستقبالها وتصور أجرها الذي سيعود به الى أسرته التي لا تعرف الحب ولا عيده في نهار ذلك اليوم.

□ بغداد/ عبد الكريم العبيدي

كربلاء تحتفي بعيد الحب

مرّ خجولاً في شوارع وأسواق بغداد

عيد الحب؛ يوم (عابر) في الحياة العراقية

لا عيد للحب هنا، لا وردة حمراء، ولا بطاقة للمعايدة، الملابس الرثة ذاتها، وملامح (الضيم) كما هي، وانتظار (غودو) سمة المسطر منذ عقود.

ترى ماذا سيحدث لو تجرأ صحفي وسأل أحدهم عن عيد الحب؟! ، وكيف سيكون الحوار مع أفواه جائعة ووجوه مصعوقة ما طالها الفرح لحظة؟

ولكن حدث ذلك، و(طقطقت) الإجابات، بل قل انفجرت وتناثرت، وكانت علاقة الردود مع عيد الحب تشبه المثل العراقي الساخر: (شنو علاقة الجلاق بالدولمه) ؟! نعم، هكذا كانت الردود، بعضهم ردّ مستغربا: (شنهي؟! عيد الحب؟! ، عمي يا حب يا بطيخ!؟، آخر قال: (امشي عليك "العباس" ما تعوفنه ابضيمنه وتروح)!!، ثالث ردّ ساخرا: (شوف هذا البطران اشجاي يسأل)!؟، وحين انتقلت الردود سريعا (كالعادة) إلى طور العنف وهتف عاطل عجوز كان يجلس متقرفصا لصق جدار: (والله هذا العيد طلعنه صفح)!

لكن عيد الحب أو عيد العشاق أو "يوم القديس فالنتاين" هو (هناك)، في دول أخرى عديدة يغدو كل عام مناسبة يحتفل بها الكثير من الناس، وفي البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية، يعتبر اليوم التقليدي الذي يعبر فيه المحبون عن حبهم لبعضهم البعض عن طريق إرسال بطاقات عيد الحب أو إهداء الزهور أو الحلوى لأحبائهم. وتشير الإحصائيات التي قامت بها الرابطة التجارية لناشري بطاقات المعايدة في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن عدد بطاقات عيد الحب التي يتم تداولها في كل أنحاء العالم في كل عام يبلغ مليار بطاقة تقريبا، وهو ما يجعل يوم عيد الحب يأتي في المرتبة الثانية من حيث كثرة عدد بطاقات المعايدة التي يتم إرسالها فيه بعد عيد الميلاد. كما توضح الإحصائيات التي صدرت عن هذه الرابطة أن الرجال ينفقون في المتوسط ضعف ما تنفقه النساء على هذه البطاقات في الولايات المتحدة الأمريكية!

خليهه سكتة!

ربما عثرت أغنية الموسيقار محمد عبد الوهاب "يا ورد من يشتريك" على مكان صغير لها في السوق، حيث بادر بعض الشباب بشراء الورد الأحمر لتقديمه (خلسة) لنصفهم الآخر (عربون حب).

محال بيع الورود شهدت إقبالاً محدوداً، (الواحد يحجي ضميره)، شابات وشباب، وطلبة اشتروا علبا جميلة مختلفة الأحجام والأسعار، تحوي بداخلها دبا وورودا حمراء وأشرطة جميلة، وبالغوا بشراء أغصان الورود الحمر، ولأول مرة بدا الحوار معهم يحمل لمسة عيد الحب، بعيدا عن مفردات (البطران والضيم والصخريه ماو)، لكنهم امتنعوا جميعا عن ذكر أسمائهم أو التقاط صور لهم، (مال صخريه ماو واتنكره بعرج الاذن).

في تلك اللحظة بالضبط سكت الصحفي عن الكلام المباح حين أدركه (الصياح)!

فالنتاين (آخر زمان)!

غالبية أسواق بغداد خلت من مظاهر عيد الحب، المتبضعون والمتسوقون يبحثون كعادتهم عن حاجات منزلية وأطعمة وفواكه وخضروات، وثمة من يتجول في الأسواق بحثا عن حاجات مختلفة لكنها في عمومها لا تشمل مفردة (للحب وعيده)، (نشاز) صارخ ويتيم واحد لوحظ في أحد التقاطعات، كان بطله شاب نحيف يلوح بأغصان الورود الحمراء ويهتف: (الوردة بألف، وينهم العشاك، وينهم)؟، ومثل ذلك (النشاز) بدأ يتكرر قرب السيطرات التي غالبا ما تشهد زحاما كثيفا، وتتوقف السيارات لدقائق طويلة، أحد الراكبين في سيارة نوع (كيا) مد يده في جيب دشداشته ليشتري غصنا وردد:

اعباء على الجيوب

عشاق من جميع الأعمار

وكأنهم سيتحدثون عن أخطر القضايا الساخنة حساسية، طالبة جامعية قالت: (عيد الحب مناسبة جميلة، ولكنها جديدة على مجتمعنا، ولذلك تبقى مظاهرها محدودة على نخبة معينة، أنا أحتفل بهذه المناسبة كل عام، أتبادل التهاني وبطاقات المعايدة وأغصان الورود، وما أحمله بيدي الآن بيدي سأهديه لوالدتي وشقيقتي...،

– والصديق؟

– Stop، لا تعليق)!!

طالب آخر بدا أكثر حماسا وتفاعلا مع الحب، قال: مشكلتنا أننا لا نحب الحياة!، نحن نعشق الحزن، وهذا ناتج من كثرة المصائب والمحن والحروب التي عاشها الشعب العراقي، ولذلك يبدو عيد الحب طارئا علينا، ولا يتقبله الكثير من الناس، وحتى نحن الذين اشترينا هذه الهدايا سنخفيها في أكياس سوداء لنتجنب النظرات الساخرة وعبارات التهكم من البعض، والغريب أن الكثير من المثقفين أيضا لا يتفاعل مع مناسبة هذا العيد بفاعلية، وتراه يبتسم، بل يسخر أحيانا منه، فما بالك بالأميين والبسطاء والفقراء؟، "احنه حسبتنه داجه")!

طالب في الصف السادس الإعدادي بيّن أن احتفاله بالعيد ينحصر في غرفته، وقال: (قبالة شاشة الحاسبة أشعر فقط بعيد الحب، الفيسبوك والمنتديات والمواقع الإلكترونية تشعرني بان هناك عيدا اسمه عيد الحب، وهناك نتبادل التهاني ونرسل باقات الورود الحمراء ونطلق النكات والطرائف عن عيد الحب، فعلى الغوغل والياهو رسائل عيد الحب ٢٠١٢، وصور عيد الحب، وخلفيات عيد الحب)، وأضاف: (في العديد من الدول الأجنبية والعربية يبدو عيد الحب مناسبة مهمة، صديق لي في الفيسبوك من لبنان أكد لي أن اللبنانيين ينتظرون كل عام بفارغ الصبر "عيد الحب" ويخططون لحضور الحفلات الخاصة للفنانين اللبنانيين والعرب المشهورين.

كما درجت العادة تخصيص الفنانين "عيد الحب" بأغنية مفردة "سينغل" مصورة عن الحب، وهناك تقليد إهداء الورود الحمراء كعربون محبة، علماً أن سعر الوردة الحمراء تراوح بين الدولار الواحد للإنتاج المحلي، والعشر دولارات للوردة المستوردة من أوروبا...،

– وفي العراق؟

– في العراق؟، مممم، خليهه سكته!.

ردود طلبة متميزين

داخل مقهى للانترنت كان مكتظا بالكثير من الطلبة، أغلبهم من المتميزين في المرحلة الإعدادية، (متميزون، نعم متميزون)، كانت (صدمة) عيد الحب كبيرة ومؤلمة، فهؤلاء، (جيلنا الجديد)، اختلط عندهم عيد الحب بتجارب حبهم الفاشلة والسريعة، وبات العيد بحسب (مراهقتهم) مناسبة (تعبانه) لا تختلف عن لهثهم خلف قصص حبهم السريعة والعديدة، وإذا عثرت على رد مقبول وجميل فسيضيع حتما وسط حزمة من الردود (غير الصالحة للنشر)، بل أن وقاحة بعضهم وصلت حد إطلاق كلمات نابية عن عيد الحب!

– عيد الحب؟، والله شيء راقي، والحب صدك محتاج لعيد علمود نذكر بيه أحبابنا من جديد.

– فشل وتقليد للغرب، ومال ناس فارغين.

– والله آني بصراحة (لايك)!.

– عيد الحب؟،هههههه، مثل ما سوو عيد الأم، حيسوون عيد الأب وعيد أخ وأخت وعيد (الكبل) وأكيد حيسموه عيد الـ (....)، كلمة نابية جدا!.

– ما كو حب ابهالزلك.

– ما كو وحده تستاهل حب ابهالوكت، ونادر ما تلكه وحده وفية.

– شيء تافه جدا ولا يشغل تفكيري أبدا.

– سأقدم لأبي اليوم هدية بطل ويسكي شيفاز!!!

– ليش لا، حلو.

– لو بيدي سلطة كان غيرت اسمه إلى عيد الـ (....) كلمة نابية ووقحة!

– ما كو حب.

– كلش حلو.

– رائع لمن يملك حبيبة.

– هوه يوم حلو للي يحتفل بيه، بس أكو اهوايه ناس ميعترفون بيه.

– عيد الحب، لو عيد (أومأ بيده بحركة وقحة)!؟

– (طالبة ترتدي حجابا قالت: "قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون")!.

من أرشيف الحب

....وكان وماكان في قديم الزمان، روت الحاجة أم فاخر قصة حب في عيد الحب، قصة قديمة حصلت قبل أكثر من نصف قرن، قالت: (كنت طفلة وكان الحاج، رحمه الله "حاط عينه علي".. كان يكبرني بعشرة أعوام كما يقول هو، ولكنني أعتقد انه كان اكبر من ذلك بكثير.

كانت فرص لقائنا كثيرة، فغالبا ما يشترك الرجال والنساء في السقي والزرع والحصاد. وكانت العائلات مترابطة في ما بينها وتتزاور باستمرار. ولكننا كنا نفضل اللقاء على ضفاف النهر إثناء جلب الماء فقد كان اعتمادنا على ماء النهر في أغراض الشرب والغسل والسقي. كنت أحمل (المصخنة) منذ الصباح الباكر . وعاء نحاسي يستخدمه أهالي جنوب العراق لحمل الماء على نطاق واسع منذ بدايات القرن الماضي، وقد أصبح الآن من الأواني التراثية..

أم فاخر أضافت: (كنت أتحايل على بنات الجيران لأذهب وحدي، فأجده مختبئا بين أشجار النخيل، كنا نتحاور بسرعة وكثيرا ما كنت أطلعه على نوايا أمي ومحاولاتها الحثيثة لتزويجي من ابن أخيها، ولذلك كنت أطالبه بالإسراع في طلب يدي قبل فوات الأوان.

تصمت أم فاخر قليلا ثم تقول صحيح أننا كنا فقراء ولكن الدنيا كانت بخير، لا مفخخات ولا تفجيرات ولا ذبح، كنا نعيش بسلام ووئام، كلمن على مذهبه وكلمن على طريقته، وما كان عدنه عيد حب، حياتنا كانت كلهه حب، رغم الفقر والقحط والأمراض، بس كانت حلوة.

الحاجة أبدت أسفها على شباب هذا العصر الذي توفرت لديه كل قنوات الاتصال وفرص التعارف ولكنهم بنظرها لا يعرفون معنى الحب الحقيقي، كلشي عدهم سرعة بسرعة، الدنيا تغيرت كثيرا يا بني).

أزدهار لمبيعات الزينة

وما كان عدنه عيد حب، حياتنا كانت كلهه حب، رغم الفقر والقحط والأمراض، بس كانت حلوة

(جيلنا الجديد)، اختلط عندهم عيد الحب بتجارب حبهم الفاشلة والسريعة

(كنت طفلة وكان الحاج، رحمه الله "حاط عينه علي".. كان يكبرني بعشرة أعوام كما يقول هو)